حياة العالم الجليل، سلطان المحقّقين، شيخ الإسلام والمسلمين

الشيخ شرف الدين ابن الشيخ يحي المنيري رضي الله عنهما

المأخوذة من كتاب

بَرَكَاتِ الصُّوفِيَّةِ في شبهِ القَارَّةِ الهِنْدِيَّةِ

تأليف

الأستاذ الدّكتور أنوار أحمَد خان البغدادي

دار المَلِك

للتحقيق والترجمة والطباعة والنشر



الشيخ شرف الدين يحي المنيري

وخدماته الدعوية

مولده ونشأته ووفاته:

هو العالم الجليل، الصُّوفي الورع، مخزن العلم والحكم، قطب المشايخ، عالي الهمة مستور الأحوال، العامل بالكتاب والسنة، وارث الأنبياء والرسل، سيّد المتكلمين، سلطان المحقّقين، برهان العاشقين، شيخ الإسلام والمسلمين، شرف الحق والملّة والدِّين، مخدوم العالَم، الشيخ شرف الدين ابن الشيخ يحي المنيري -رحمهما الله-.

وُلد في بلدة "مُنِيْر" على بُعد ١٨ كلو مِتر من "بَتْنَهْ"، عاصمة وِلاية "بِيْهَارْ"، التي تقع في شرق الهند(١).

كانت أسرتُه أسرة صلاح وفلاح، فقد كان أبوه الشيخ يحيى رجلا صالحا، وكذا كانت أمُّه السيدة رضية تقيةً طاهرةً، لم تكن تُرضعه إلا بعد أن تتوضأ، وكذا كان جدّه

(١) ينظر: "نُقوش شرف" (كتابٌ خاصٌ بحياة الشيخ شرف الدين يحيى المنيري، وأعماله وآثاره)، تأليف: الدكتور سيد صدر الحسن، ناشر: بَزْمِ فِردوسية ترست، كراتشي، ٢٠٠٤م، صـ: ٣٨.

لأمّه الشيخ القاضي شهاب الدين أيضا من الرجال الصالحين، وكانت مخايل الولاية قد ظهرت في جبينه منذ صغره[١].

جَدّ في سبيل العلم، وسافر إلى قرية "سنار كاؤن" في بنغال، حيث أخذ عن الشيخ شرف الدين[٢]، وتزوّج صغيرا، ورُزق بولد، لكن عاطفة الشوق إلى المعرفة والسّلوك إلى الله تموّجت في قلبه فاستأذن أمّه وسافر إلى دهلي، والتقى بحضرة الشيخ نظام الدين أولياء، ولم يبق لديه إلا قليلا، ثم غادر دهلي ووصل إلى "باني بت"، حيث التقى بالشيخ شرف الدين بو علي قلندر، ولم يأخذ منه لكونه مغلوبَ الحال، بل تقدّم في سفره حتى وصل إلى "استانبول"، والتقى بحضرة الشيخ نجيب الدين الفردوسي[٣]، فتأثر به وأخذ عنه الطريقة الفردوسية، ولبس منه خرقة الخلافة، والطريقة الفردوسية العالية تتصل بالشيخ نجم الدين كبرى -قدّسَ سرّه-[٤].

(١) ينظر: "مناقب الأصفياء"، تاليف: الشيخ شعيب الفردوسي المتوفى ٨٢٤هـ، ترجمة: الدكتور محمد علي أرشد الأشرفي، ناشر: مكتبة شرف، بيهار شريف، الطبعة الأولى: ٢٠٠١م، صـ: ٢٦٤. و"مرأة الأسرار"، صـ: ٩٢٨.

(٢) هو الشيخ شرف الدين أبو توّامه الحنفي الدهلوي، من كبار الأساتذة، خرج من دهلي أيام شمس الدين أيلتمش، وسافر إلى "سنار كاؤن"، فدرّس وأفاد بها مدة عمره، وهناك أخذ منه الشيخ شرف الدين صاحب الترجمة. (ينظر: نزهة الخواطر، ١/ ١٠٢).

(٣) هو الشيخ الإمام صاحب الفقر التام، من الأولياء الكاملين الذين يؤثرون الخمول على الشهرة، توفي عام ٦٩١هـ.

(٤) ينظر: "مناقب الأصفياء"، ٢٦٦. و"مرأة الأسرار"، صـ: ٩٢٧ – ٩٢٩.

وبعد أن أعطاه شيخه الإجازة والخلافة أمره بالرجوع إلى بلاده، وقال له إذا سمعت خبرا فلا ترجع، فلم يمش فرسخا أو فرسخين حتى سمع نبأ وفاته فأراد الرجوع لكنه تذكّر وصيته فتواصل السفر، وكان يمرّ ببنارس، إذ تاقت نفسه إلى الخلوة بذكر الله، وكان أخوه معه، فأعطاه ما وهبه شيخه وأرسله إلى والدته، أمّا هو فقد قصد الغابة للخلوة بالذكر والعبادة[(١)].

ويُذكَر أن والدته قلقت بشأنه في يوم ماطر، وقالت: لا أدري عن ابني في أية حالة هو، وما أن خطر ببالها حتى سمعتْ صوته في صحن البيت يناديه فقالت: ادخل؟ قال: تعالي وانظري إليَّ من فضلكِ؟ فلما خرجت رأتْه قائما في الصحن والمطر لا يصيبه شيئا. فقال لها: يا أمي لا تقلقي بشأني، بل فوّضيني إلى الله -سبحانه تعالى-، وكوني راضية عني فإنه سبحانه تعالى هو الذي يغمدني برحمته ويغطيني برداء الحفاظ كما تشاهدين، فسكن قلبها[(٢)].

قضى في الغابة سنوات طويلة، قيل: إنها ثلاثون سنة، وقيل: إنها أربعون سنة حتى اشتهر أمره فتهافت عليه الخلق، وبدأ أصحابه يزورونه في الغابة، لكنه كرهَ ذلك تواضعا، فقال: لا تتكلّفوا المجيء هنا أنا الذي سآتيكم كلَّ جمعة، فبنى له حاكم بهار السلطان محمد شاه مجد الملك زاويةً، ولما كثر الخلق وزاد الازدحام وسعت الزاوية،

(١) ينظر: "مناقب الأصفياء"، ص: ٢٦٧. و"مرأة الأسرار"، صـ: ٩٣٠.

(٢) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٦٧-٢٦٨. و"مرأة الأسرار"، صـ: ٩٣٠.

وتولى السلطان فيروز شاه مقاليد حكومة بهار، أمر بوقف قرية كاملة للإنفاق على الزاوية[١]، التي ما زالت موجودة إلى يومنا كما يقال.

قضى حياة حافلة بالعطاء، وعاش طويلا فقد أدرك سلطان المشايخ نظام الدين أولياء البدايوني، وظلّ إلى عصر الشيخ أشرف جهانكير السمناني، جاء في "لطائف أشرفي" أنه سئل في آخر عمره عمّن يصلّي عليه، فأجاب: غدا سيأتي رجل من السادات الأشراف، صحيح النسب، تارك الدنيا، حافظ القرآن، من مكان بعيد، هو الذي سيصلّي على جنازتي. فلما كان الغد توفّاه الله تعالى، وذلك في شوال المكرّم، عام ٧٥٢هـ، فغسلوه وكفّنوه، وبدأ الناس ينتظرون القادم من بعيد الذي أوصى عنه الشيخ، وبينما هم كذلك إذ رأوا الشيخ سيد أشرف جهانكير السمناني آتيا مع أصحابه، فرحّبوا به، وصلّى عليه[٢].

وجاء في "مناقب الأصفياء" أنه توفي عام ٧٨٢هـ، وتمّ تدفينه يوم الخميس ستة شوال[٣].

من فضائله وكمالاته:

كان غايةً في الحلم والتواضع، بعيدا عن التكلّف والتصنّع، لم يكن له التفاتة إلى النفس، بل كان واصلا إلى درجة "فناء في الله"، فقد يذكر أنه كان بين أحبابه من المشايخ

(١) ينظر: "مرأة الأسرار"، صـ: ٩٣١. و"نقوش شرف"، صـ: ١٠٤.

(٢) ينظر: "مرأة الأسرار"، صـ: ٩٣٤ - ٩٣٥.

(٣) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٩٢.

الكرام، فأبدى كلٌّ منهم رأيه فيما يتمناه، ولما جاء دوره، قال: أريد أن لا يُذكَر اسمي، لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر(١).

وكان يقول تواضعا: إن المجاهدات التي قام بها شرفُ الدين، يعني به نفسَه، لو قامت بها الجبال لصارت ماء ولكن شرف الدين لم يحصل شيئا(٢).

كان صاحب الكشف والكرامات ولكنه تسترّ بها دائما تواضعا منه، ولم تظهر منه كرامةٌ إلا نادرا وعند الضرورة، كما هي شان كرامات الأولياء التي لا تكون عبثا ولهوا؛ وإنما تكون لغاياتٍ شريفةٍ؛ كما يُذكَر أن رجلا أتى بذباب ميتة وطلب منه أن يحييها؛ لأن الشيوخ الأجلة لهم قدرة من الله على بعض هذه الأمور، فرفض رفضا باتا واعتذر له قائلا: أنا نفسي عاجز ومقهور، كيف يمكن لي إحياء الآخرين(٣).

كان محبّ الفقراء والمساكين، صاحب الخلق الجميل، يشبه خلقه خلق النبي الأكرم ﷺ، لم يكن يؤذي أحدا، كما يروى أنه كان صائما صوم نفل فجاء أحد محبّيه بطعام والتمس منه أن يأكله فأفطر خوفا من أن لا يتكسّر قلب الرجل، وقال: يمكن لي أن أقضي الصوم، ولا يمكن لي أن أكسر القلب؛ فإن كسره لا يُجبَر، وفواته لا يُقضَى(٤).

---

(١) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٧٣. و"مرأة الأسرار"، صـ: ٩٣٢.

(٢) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٧١. و"مرأة الأسرار"، صـ: ٩٣٠.

(٣) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٧٣. و"مرأة الأسرار"، صـ: ٩٣١.

(٤) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٨٠.

من آثاره العلمية:

يمكننا أن نقسّم أعماله وآثاره في ثلاثة أقسام: مكتوباته، ومؤلفاته، وملفوظاته، وهي كما يأتي:

أولا: مكتوباته: له رسائل كثيرة كتبها بين حين وآخر إلى أتباعه ومعاصريه من المشايخ، كما كتب رسائل إلى الشيخ جلال الدين البخاري، ورسائل منها إلى الشيخ مظفر البلخي، وغيرهما. وتعد كتاباته دستور العمل للتصوف، فيها الحقائق والمعارف، والأحوال والمقامات.

ومن أشهر هذه المكتوبات:

(١) مكتوبات صدي.

(٢) مكتوبات دو صدي.

(٣) ومكتوبات بست وهشت.

(٤) فوائد ركني[١].

ومن أهمّ هذه المكتوبات "مكتوبات صدي"، التي تعدّ دستورا كاملا للتصوف فيها ما يفيد المنتهي والمبتدي كليهما، تشتمل على مائة مكتوبة كتبَها الشيخ عام ٧٤٧هـ لأحد أحبابه المخلصين القاضي شمس الدين الذي ألحَّ عليه أن يكتب له شيئا يُغنيه عن الحضور في مجالسه لاشتغاله بمهام أخرى[٢].

---

(١) ينظر: "نقوش شرف"، صـ: ١٦٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، صـ: ١٦٤.

ثانيا: مؤلّفاته: له عدة مؤلّفات في مختلف من العلوم والفنون، قيل: إنّها حوالي ألف وسبع مائة مؤلَّف، إلا أنَّ المؤلفات التي عرفت إلى اليوم فهي قليلة، ومن أهمها وأشهرها ما يأتي:

(١) "إرشاد السَّالكين". (كتاب في إثبات وحدة الوجود).

(٢) "إرشاد الطالبين".

(٣) "فوائد المريدين".

(٤) "الأجوبة الزاهدية"، وغيرها من كتب ورسائل[١].

ثالثا: ملفوظاته: معدن المعاني، مخ المعاني، راحة القلوب، كنز المعاني، مونس المريدين، وغيرها[٢].

مادّتُه في جميع هذه الآثار من المكتوبات والمؤلّفات والملفوظات مستوحاة من الكتاب والسنة، ولا تخلو من العلوم والفنون الأخرى، كما نراه فيها فقيها من الفقهاء النابهين.

أمّا أسلوبه في جميع آثاره من المكتوبات والمؤلفات والملفوظات، فهو أسلوب سهل بسيط يهدف إلى الإرشاد والتوجيه إلى الخير، لا يشوبه الغموض ولا يعتريه التكلف، في حين هو أسلوب أدبي إنشائي جميل.

---

(١) ينظر: المصدر السابق، صـ: ١٦٣.

(٢) ينظر: "نقوش شرف"، صـ: ١٦٣.

نماذج من كلامه: إن الطالب لا يستقر في أي مرحلة من مراحل سيره، بل هو حرام عليه في كلا العالمين، فالسكون حرام على قلوب الأولياء(١).

وقال أيضا: عليكم التوبة والاستغفار مهما كثرت الذنوب والمعاصي، ولا تقطعوا رجاءكم من الله؛ فإنكم لستم أكثر تلطخا بالذنوب من ساحري فرعون، ولستم أنجس من كلب أصحاب الكهف، ولستم أكثر جمودا من أحجار طور سيناء، ولستم أرخص من الخشب الحنانة(٢).

وقال أيضا: مَن فاز بمقام الولاية فإنه استغنى عن الكرامات، ولا يعدُّ نفسَه من أهلها، بل الكرامات صنم للعارفين، فمَن اشتغلَ بإظهارها حُجِبَ واُعتُزِلَ ومن احترز عنها تقرّب ووصلَ(٣).

خدماته الدعوية:

الشيخ شرف الدين من روّاد الدعوة الإسلامية في المناطق الشرقية من بنغال، وبيهار، وأتر برديش، وغيرها من مناطق الهند والباكستان، التي عمّت فيها بركاتُه مباشرة أو بواسطة خلفائه.

ليس لدينا إحصائيات دقيقة لمن أسلموا على يده من الهندوس إلا أننا نجزم أنهم كثيرون، تأثروا بقوته الروحانية وشخصيته المغناطيسية وإيمانه القوي المتين بالله العظيم.

---

(١) ينظر: "موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم"، للباحث العلامة محمد علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د/ رفيق العجم، ط/ ١، مكتبة لبنان، بيروت، صـ: ١١٣٨.

(٢) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٨٣.

(٣) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٨٤.

جاء في "مناقب الأصفياء" أن أصحابه جاؤوا براهب هندوسي جميل الوجه، فلما أن دخل على الشيخ شرف الدين ونظر إلى وجهه الشريف فرَّ من فوره، ولما سأله أصحابُ الشيخ عن الهروب؟ قال لهم: لا يمكن لي أن اتحمّل ما رأيت في وجه الشيخ من جلال وهيبة. فأخبروا الشيخ عما قاله. تبسّم الشيخ، وقال لهم: فليدخل الآن. فلما دخل ثانيا قال: الآن استقر قلبي. تأثر الراهب الوافد بمجرد رؤية وجهه الشريف ودخل في الإسلام ونطق بالشهادتين وعكف عليه يسلك مدراج السلوك حتى فاز بمرامه في مدة قليلة وتخرّجَ على يديه مؤمنا تقيا صالحا، صاحب السلوك والمقامات والأحوال[١].

وكذا وردت قصة ثانية أن راعي الأبقار أسلم على يده وصلح إسلامه وارتقى مدارج الكمال بعد أن رأى منه كرامة بأنّ بقرة غير حلوبة بدأت تحلب قبل الأوان[٢]. وقصة ثالثة أن راهبا تأثر به وبكراماته فأسلم. وقصة أخرى تتحدث أن رجلا هندوسيا مُسِنّا أسلم على يده، فقال: الحمد لله الذي قرّب إليه رجلا عبدَ غيره واحدا وثمانين سنة[٣].

هذه وغيرها من قصص وأحداث تدلّ على أنه اهتم بهذا الجانب فقد تأثر به خلق كثير ودخلوا في الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وسُخِّروا بالقوة الروحانية من الحب والإيمان والعمل الصالح دون الجبر والإكراه.

---

(١) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٧٧.

(٢) ينظر: "نقوش شرف"، صـ: ١٣٠.

(٣) ينظر: "مناقب الأصفياء"، صـ: ٢٧٨.

أمّا أتباعه من المسلمين الذين دخلوا في طريقته أو تابوا على يديه فيقدّر عددهم مائة ألف شخص أو أكثر، وهم من أصقاع بعيدة من الهند والباكستان وإيران والعرب وغيرها(١).

غيرَ أنّ دعوته تمركزت في منطقة "بِهار" وما جاورها من بنغال الغربية، فقد استفادت منه أمّة بكاملها، كما يُذكر أنّ الزاوية التي بناها له السلطان محمد شاه، قد ضاقت بالناس، ولم تتحمّل لتسع الناس الوافدين عليه من أرجاء الهند المختلفة، فبنى السلطان زاوية كبيرة لخدامه(٢).

وممّا يدلّ على عبقريته في النصح والإرشاد، وعلوّ كعبه في مجال الدعوة والتبليغ: أنّ الشيخ أشرف السّمناني قصد إليه؛ ليتشرّف به، ولكنّه كان في الطريق إليه إذْ توفي - رحمه الله-، ولما وصل إلى زاويته وجد جنازته التي كانت تنتظر لمن يصلي عليها رجل وافد، فصلّى عليه كما مرّ بنا.

بَرَكاتِ الصُّوفيّةِ في شبه القارّةِ الهنديّةِ

للأستاذ الدكتور أنوار أحـمد خان البغدادي، صـ٢٤٥-٢٥٤.

(١) ينظر: "نقوش شرف"، صـ: ١٣٠ - ١٣١.

(٢) ينظر: "مرأة الأسرار"، صـ: ٩٣١.